قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية

مجلة البحوث والدراسات الاسلامية

الصفحة الرئيسية للمجلة:https://djisrs.dws.gov.iq

منهج الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون عند الشيخ الطوسي: دراسة في التكامل بين النص والعقل

The Method of Rational Inference in Shaykh al-Tusi's Interpretation of the Cosmic Verses: A Study of the Integration between Text and Reason

سلطان خلف كافي*

Sultan Khalaf Kafi

Keywords

rational interpretation, verses of the universe, Muhammad ibn al-Hasan al-Tusi, demonstrative reasoning, integration between reason and text.

Abstract

The method of reasoning based on employing proof and intellectual reflection in interpreting the verses of the universe is considered one of the most prominent approaches that contributed to highlighting the cognitive integration between the Quranic text and human thought. This was clearly manifested in the exegesis of Muhammad ibn al-Hasan al-Tusi, who was distinguished by a balanced interpretive methodology compared to several other exegetes; he combined the textual indications with methods of logical and theological reasoning in analyzing cosmic phenomena and deducing their doctrinal and cognitive aspects.

The study's problem was represented in uncovering the nature of this method and determining the extent of its success in achieving harmony between the Quranic meaning and the requirements of logical thinking, away from interpretive rigidity. The study aims to analyze the cognitive foundations that al-Tusi relied upon in interpreting the verses of the universe and to clarify the mechanisms of employing proof in constructing the interpretive significance.

The study adopted the descriptive-analytical method by analyzing selected examples from the exegesis "Al-Tibyan" related to the creation of the heavens and the earth, the succession of night and day, and some natural phenomena, as the study reached the conclusion that Al-Tusi established an interpretive approach that contributed to consolidating the interaction between revelation and thought, and his methodology had a clear impact on the development of subsequent exegetical and theological studies within the Islamic heritage.

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال:

المراجعة:

القبول:١/٦/٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية:

التفسير العقلي، آيات الكون، محمد بن الحسن الطوسي، الاستدلال البرهاني، التكامل بين العقل والنص.

المستخلص

يُعدّ منهج الاستدلال القائم على توظيف البرهان والنظر الفكري في تفسير آيات الكون من أبرز المناهج التي أسهمت في إبراز التكامل المعرفي بين النص القرآني والفكر الإنساني، وقد تجلّى ذلك بوضوح في تفسير محمد بن الحسن الطوسي الذي تميّز بمنهج تفسيري متوازن مقارنة بعدد من المفسرين؛ إذ جمع بين دلالة النص وأساليب الاستدلال البرهاني والكلامي في تحليل الظواهر الكونية واستنباط أبعادها العقدية والمعرفية. تمثلت مشكلة الدراسة في الكشف عن طبيعة هذا المنهج وبيان مدى نجاحه في تحقيق الانسجام بين المعنى القرآني ومتطلبات التفكير المنطقي بعيدا عن الجمود التفسيري، وتهدف الدراسة إلى تحليل الأسس المعرفية التي اعتمدها الطوسي في تفسير آيات الكون وبيان آليات توظيف البرهان في بناء الدلالة التفسيرية، واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي من خلال تحليل نماذج مختارة من تفسير «التبيان» المتعلقة بخلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وبعض الظواهر الطبيعية، إذ توصلت الدراسة إلى أن الطوسي أسّس لاتجاه تفسيري أسهم في ترسيخ التفاعل بين الوحي والفكر، وكان لمنهجه أثر واضح في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية اللاحقة داخل التراث الإسلامي.

*alysawysltan7@gmail.com

١.المقدمة:

تُعدّ آيات الكون في القرآن الكريم من أبرز المجالات التي استقطبت اهتمام المفسرين والمتكلمين، لما تتضمنه من دلالات عقدية ومعرفية ترتبط بإثبات القدرة الإلهية وبيان نظام الكون وعلاقته بالخالق، وقد اعتمد القرآن الكريم في عرض هذه الآيات على منهج يقوم على إثارة التفكير والتأمل العقلي في الظواهر الكونية بوصفها دلائل على الحكمة الإلهية ووحدانية الله تعالى، الأمر الذي جعل العقل عنصرا أساسا في فهم كثير من المقاصد القرآنية المرتبطة بالكون والوجود (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٥٥)، لذا برز الاتجاه العقلي في التفسير بوصفه أحد المناهج التي سعت إلى الجمع بين دلالة النص وأدوات النظر العقلي، خاصة في تفسير الآيات المتعلقة بالخلق والطبيعة والوجود.

شهد التراث التفسيري الإسلامي تنوعا واضحا في المناهج والاتجاهات الفكرية؛ إذ ظهرت اتجاهات تفسيرية متعددة كالتفسير بالمأثور والتفسير اللغوي والتفسير الكلامي والتفسير الفلسفي، وكان لكل اتجاه منهجه الخاص في التعامل مع النص القرآني وآليات استنباط معانيه، ومن بين هذه الاتجاهات برز تفسير محمد بن الحسن الطوسي في كتابه التبيان في تفسير القرآن بوصفه نموذجا متميزا للتفسير العقلي المعتدل؛ إذ جمع بين دلالة النص وأساليب الاستدلال البرهاني والكلامي في تحليل الآيات الكونية واستنباط أبعادها المعرفية والعقدية (الطوسي، ١٩٦٣، ص. ٥)، وقد تأثر الطوسي بالبيئة العلمية والكلامية التي شهدها القرن الخامس الهجري، حيث ازدهرت مباحث علم الكلام والمنطق والفلسفة الإسلامية، مما انعكس بصورة واضحة على منهجه في التفسير، إذ لم يقتصر على بيان المعاني الظاهرة للآيات، بل سعى إلى توظيف البرهان العقلي في ترسيخ العقيدة وإثبات القضايا الإيمانية (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١٢).

تنبع أهمية دراسة منهج الاستدلال العقلي عند الطوسي من كونه يمثل محاولة علمية لتحقيق التوازن بين الوحي والعقل داخل البناء التفسيري الإسلامي؛ إذ إن قضية العلاقة بين العقل والنص تعدّ من أكثر القضايا حضورا في الدراسات الإسلامية والفكرية، وقد انقسمت المواقف بشأنها بين اتجاهات غلبت النقل وأخرى توسعت في التأويل العقلي إلى حد إخضاع النص للمعطيات الفلسفية والكلامية (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٨٩؛ معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١١)، إذ تتحدد مشكلة الدراسة في الكشف عن طبيعة المنهج العقلي الذي اعتمده الطوسي في تفسير آيات الكون وبيان الأسس المعرفية والكلامية التي استند إليها

في بناء دلالاته التفسيرية، فضلا عن معرفة مدى نجاحه في تحقيق الانسجام بين ظاهر النص القرآني ومتطلبات التفكير المنطقي بعيدا عن الجمود التفسيري أو الإفراط التأويلي.

كما تتصل مشكلة الدراسة بقلة الدراسات المتخصصة التي تناولت آليات الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون عند الطوسي بصورة مستقلة؛ إذ ركزت معظم الدراسات السابقة على الجوانب الفقهية أو الكلامية أو اللغوية في تفسيره، بينما لم تحظ البنية المنهجية لاستدلالاته العقلية بالعناية الكافية على الرغم من أهميتها في فهم طبيعة التفاعل بين الوحي والعقل في الفكر الإسلامي، ويزداد هذا الموضوع أهمية في ظل تنامي الدراسات المعاصرة التي تهتم بإعادة قراءة التراث التفسيري وتحليل أبعاده الفكرية والمعرفية وعلاقته بإشكاليات العقل والدين والعلم (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣٢٥؛ السبحاني، ٢٠٠٥، ص. ٢١٤).

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل منهج الاستدلال العقلي عند الشيخ الطوسي في تفسير آيات الكون، والكشف عن الأسس المعرفية والكلامية التي اعتمدها في بناء دلالاته التفسيرية، فضلا عن بيان آليات توظيف البرهان العقلي في تفسير الظواهر الكونية والطبيعية، كما تهدف الدراسة إلى إبراز أثر هذا المنهج في ترسيخ التكامل المعرفي بين الوحي والعقل، وبيان إسهامه في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية داخل التراث الإسلامي.

وتسعى الدراسة للإجابة عن مجموعة من التساؤلات، من أبرزها:

- ما طبيعة المنهج العقلي الذي اعتمده الشيخ الطوسي في تفسير آيات الكون؟
- ما المرتكزات المعرفية والكلامية التي استند إليها في تفسيره؟
- كيف وظّف البرهان العقلي في بناء الدلالة التفسيرية للظواهر الكونية؟
- إلى أي مدى نجح في تحقيق التوازن بين ظاهر النص القرآني ومتطلبات النظر العقلي؟
- ما أثر هذا المنهج في تطور الفكر التفسيري الإسلامي؟

أما حدود الدراسة فتقتصر على تحليل نماذج مختارة من آيات الكون الواردة في تفسير «التبيان»، ولا سيما الآيات المتعلقة بخلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وبعض الظواهر الطبيعية التي تناولها الطوسي بالتحليل العقلي والكلامي، مع التركيز على الجانب المنهجي في الاستدلال دون التوسع في القضايا الفقهية أو اللغوية الأخرى.

تتجلى أهمية الدراسة في كونها تسلط الضوء على أحد المناهج التفسيرية التي أسهمت في بناء العلاقة التكاملية بين العقل والنص في التراث الإسلامي، كما تسعى إلى إبراز القيمة العلمية لتفسير الشيخ الطوسي بوصفه نموذجا للتفسير العقلي المعتدل الذي جمع بين احترام دلالة النص وتوظيف البرهان العقلي في بناء المعنى التفسيري، كذلك تسهم الدراسة في تعزيز الدراسات المعاصرة المتعلقة بمناهج التفسير وفلسفة التأويل، وإعادة قراءة التراث التفسيري قراءة علمية تكشف عن أبعاده الفكرية والمعرفية (فضل، ١٩٩٦، ص. ٦٦).

وقد احتوت الدراسة على عدة عنوانات تصبُّ في هذا المنوال وهي:

١. الدراسات السابقة

٢. المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والمعرفي للاستدلال العقلي وآيات الكون.

٣. المبحث الثاني: منهج محمد بن الحسن الطوسي في تفسير آيات الكون

٤. المبحث الثالث: التكامل بين النص والعقل في تفسير محمد بن الحسن الطوسي لآيات الكون.

الدراسات السابقة

حظي موضوع التفسير العقلي وعلاقة العقل بالنص القرآني باهتمام واسع في الدراسات التفسيرية والفكرية المعاصرة، وقد تناولت العديد من الدراسات مناهج المفسرين في توظيف البرهان العقلي في تفسير القرآن الكريم، ولا سيما لدى المفسرين الذين تأثروا بالاتجاهات الكلامية والفلسفية في الفكر الإسلامي، ومن بين هذه الدراسات ما ركّز على الاتجاه العقلي في التفسير بصورة عامة، ومنها ما تناول تفسير محمد بن الحسن الطوسي بصورة خاصة من جوانب متعددة، إلا أن الدراسات التي تناولت منهج الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون عند الطوسي بقيت محدودة نسبيا، الأمر الذي يمنح الدراسة الحالية أهميتها العلمية.

من أبرز الدراسات التي تناولت الاتجاه العقلي في التفسير دراسة محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، حيث تناول المؤلف مناهج المفسرين واتجاهاتهم الفكرية، وخصّ الاتجاه العقلي ببحث مستقل تناول فيه أثر علم الكلام والفلسفة في تفسير القرآن الكريم، كما أشار إلى عدد من المفسرين الذين اعتمدوا على العقل في بناء دلالاتهم التفسيرية، ومن بينهم الشيخ الطوسي، وقد بيّنت الدراسة أن التفسير العقلي نشأ بوصفه محاولة للتوفيق بين النص ومتطلبات النظر العقلي، إلا أن المؤلف أشار إلى تفاوت المفسرين في حدود توظيف العقل داخل التفسير (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٨٩)، وتفيد هذه الدراسة

البحث الحالي في تأصيل مفهوم الاتجاه العقلي وبيان تطوره داخل التراث التفسيري الإسلامي، إلا أنها لم تتناول آيات الكون عند الطوسي بصورة مستقلة أو تحلل منهجه الاستدلالي تحليلا تفصيليا.

كما تناول محمد هادي معرفة في كتابه التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب الاتجاهات التفسيرية عند علماء الإمامية، وتحدث عن تفسير «التبيان» بوصفه من أوائل التفاسير التي جمعت بين الرواية والتحليل العقلي والكلامي، وأوضح أن الطوسي أسهم في تطوير منهج تفسيري يعتمد على الحجاج العقلي والمنطق الكلامي في مناقشة القضايا العقدية وتفسير الآيات الكونية (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١٨)، وتمتاز هذه الدراسة بتركيزها على البعد المنهجي في تفسير الطوسي، إلا أنها لم تخصص بحثا مستقلا لمنهج الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون وهو ما تسعى الدراسة الحالية إلى معالجته بصورة أكثر تخصصا.

في سياق الدراسات المتعلقة بالعلاقة بين العقل والنص، تناول محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه *مناهل العرفان في علوم القرآن* قضايا التفسير ومناهج فهم النص القرآني، مبينا أن المفسرين قد اختلفوا في حدود توظيف العقل في التفسير بين اتجاه يلتزم بظاهر النص واتجاه يوسّع دائرة النظر العقلي في فهم الدلالات القرآنية، ولا سيما في القضايا العقدية والكونية، الأمر الذي أسهم في ظهور اتجاهات تفسيرية متعددة داخل التراث الإسلامي (الزرقاني، ١٩٩٥، ص. ٤٥).

ومن الدراسات المهمة أيضا ما قدّمه جعفر السبحاني في كتابه المناهج التفسيرية في علوم القرآن؛ إذ تناول تطور المناهج التفسيرية واتجاهاتها الفكرية، وناقش أثر الاتجاه العقلي في تفسير النص القرآني، مبيّنا أن عددا من الدراسات المعاصرة أعاد الاهتمام بالمناهج العقلية بوصفها وسيلة لتحقيق التوازن بين الوحي والعقل وإبراز البعد المعرفي للخطاب القرآني (السبحاني، ٢٠٠٥، ص. ٢١٤)، وتفيد هذه الدراسة في ربط موضوع البحث بالسياق المعاصر للدراسات التفسيرية، إلا أنها لم تتناول تفسير الطوسي بصورة مباشرة.

في إطار الدراسات المتصلة بالبنية الفكرية للتفسير، تناول صلاح فضل في كتابه بلاغة الخطاب وعلم النص طبيعة الخطاب التأويلي وآليات بناء الدلالة في النصوص الفكرية والدينية، وأكد أهمية البنية العقلية في تشكيل المعنى داخل الخطاب التفسيري (فضل، ١٩٩٦، ص. ٦٦)، وتبرز أهمية هذه الدراسة في إسهامها في فهم آليات بناء الدلالة التفسيرية وعلاقة العقل بالنص، وهو

ما يفيد الدراسة الحالية في تحليل المنهج الاستدلالي عند الطوسي.

كما ظهرت بعض الدراسات الجامعية الحديثة التي تناولت تفسير «التبيان» من زوايا متعددة، مثل الدراسات المتعلقة بمنهج الطوسي في التفسير الكلامي أو موقفه من القضايا العقدية، وقد أكدت هذه الدراسات أن الطوسي كان من أوائل المفسرين الذين اعتمدوا على المنهج العقلي بصورة واضحة في تفسير القرآن الكريم، مستفيدا من أدوات المنطق والكلام في تحليل النصوص القرآنية، إلا أن أغلب هذه الدراسات اتجهت إلى الجوانب الكلامية أو الفقهية، ولم تخصّ آيات الكون بدراسة مستقلة تكشف عن طبيعة الاستدلال العقلي فيها وآليات توظيف البرهان في تفسير الظواهر الكونية.

ومن خلال استعراض الدراسات السابقة يتضح أن معظم الدراسات تناولت الاتجاه العقلي في التفسير بصورة عامة، أو تناولت تفسير الطوسي من جوانب كلامية وفقهية ولغوية، في حين لم تحظَ آيات الكون في تفسير «التبيان» بدراسة مستقلة تركز على تحليل منهج الاستدلال العقلي وآلياته المعرفية والكلامية، ومن هنا تتميز الدراسة الحالية بمحاولة الكشف عن طبيعة المنهج العقلي الذي اعتمده الشيخ الطوسي في تفسير آيات الكون وتحليل أدواته الاستدلالية وبيان مدى نجاحه في تحقيق التكامل بين دلالة النص القرآني ومتطلبات النظر العقلي داخل البناء التفسيري الإسلامي.

٢.المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والمعرفي للاستدلال العقلي وآيات الكون

أولا: مفهوم الاستدلال العقلي في التفسير

يُعدّ الاستدلال العقلي من أبرز الأدوات المعرفية التي اعتمدها المفسرون في فهم النص القرآني واستنباط دلالاته، ولا سيما في الآيات التي تتصل بالقضايا العقدية والكونية والوجودية، ويقوم هذا المنهج على توظيف العقل بوصفه وسيلة لفهم المعنى القرآني وربط الدلالات النصية بالبراهين المنطقية والمعرفية، بما يسهم في الكشف عن المقاصد الكلية للنص، وقد حظي العقل بمكانة مهمة في القرآن الكريم، إذ تكررت الآيات التي تدعو إلى التفكر والتدبر والنظر في خلق السماوات والأرض، الأمر الذي يدل على أن الخطاب القرآني لم يكن معزولا عن وظيفة العقل في إدراك الحقائق وإثبات العقائد (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٨٩).

يُقصد بالاستدلال العقلي في التفسير: توظيف المبادئ العقلية والبرهانية في تحليل النصوص القرآنية والكشف عن دلالاتها، من خلال الاستعانة بالمنطق والحجاج الكلامي وربط الأسباب بالمسببات في تفسير الظواهر والمعاني، والعقل هو مصطلح عربي يستخدم في الفلسفة الإسلامية وعلم

اللاهوت للعقل أو القدرة العقلانية للنفس التي تربط البشر بالله، وفقا للمعتقدات الإسلامية، فإن العقل هو ما يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ويمنعه من الانحراف. وفي الفقه، يرتبط العقل بالاستدلال بالشريعة، ويُترجم إلى الاستدلال الجدلي، وفي اللغة "العقل" مشتق من الجذر "ع-ق-ل" والذي يعني الربط، وفي الفكر الإسلامي يستخدم هذا المصطلح لوصف القدرة التي تربط الأفراد بالله ، من منظور الإسلام، فإن «العقل» هو الذي يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ويمنعه من الضلال، ولهذا السبب كثير من آيات القرآن الكريم تُقارن بين من يضلون وبين من لا يستخدمون عقولهم، كما في الآيات التي تقول: ولا يعقلون أي "لا يفهمون" أو حرفيا لا يستخدمون عقولهم، حيث إن الفعل يعقلون مشتق من الجذر «عقل» المرتبط بالعقل؛ أو كما في الآية لا يفقهون أي لا يفهمون، حيث إن الفعل «يفقهون» مشتق من الجذر «فقه» الذي يدل كذلك على الفهم أو العلم (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١١).

قد انقسم العلماء في حدود توظيف العقل في التفسير إلى اتجاهات متعددة؛ فهناك من رأى ضرورة الالتزام بظاهر النص وتقديم النقل على العقل عند التعارض، في حين ذهب آخرون إلى توسيع دائرة التأويل العقلي في فهم النصوص خصوصا في القضايا العقدية والكونية، وقد أسهم هذا التباين في نشوء مدارس تفسيرية متعددة كان من أبرزها الاتجاه العقلي الذي حاول تحقيق نوع من التوازن بين الوحي والعقل داخل البناء التفسيري الإسلامي (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٨٧-٢٨٩).

ومن هنا يمكن القول إن الاستدلال العقلي لم يكن خروجا عن النص القرآني، بل كان محاولة لفهم أبعاده المعرفية والدلالية بصورة أكثر عمقا مع مراعاة الضوابط اللغوية والعقدية التي تحكم العملية التفسيرية.

ثانيا: مفهوم آيات الكون ودلالاتها في القرآن الكريم

تُطلق آيات الكون على الآيات القرآنية التي تتناول الحديث عن خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وحركة الكواكب والظواهر الطبيعية المختلفة بوصفها شواهد دالة على قدرة الله تعالى وحكمته ووحدانيته، وتمثل هذه الآيات جانبا مهما من الخطاب القرآني؛ لأنها تربط الإنسان بالكون من خلال التأمل والتفكر في النظام الكوني بوصفه دليلا على الخالق سبحانه وتعالى (ابن عاشور، ١٩٨٤، ص. ٢٢٠).

قد اعتمد القرآن الكريم في عرض آيات الكون على منهج يقوم على إثارة العقل الإنساني ودعوته إلى النظر والتأمل، إذ لم

ترد هذه الآيات لمجرد الوصف الكوني، وإنما جاءت لتحقيق غايات عقدية ومعرفية وأخلاقية تتمثل في ترسيخ الإيمان بالله وإثبات وحدانيته وتنمية الوعي بسنن الكون والحياة، ولذلك ارتبطت آيات الكون في كثير من المواضع بأساليب الاستفهام والتفكر والتدبر كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران: ١٩٠]، وقوله تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [الغاشية: ١٧-٢٠]، وكذلك قوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات: ٢٠-٢١]، وقوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) [الرعد: ٢]، وقوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) [النحل: ١٢]، مما يدل على أن الخطاب القرآني اعتمد على تحفيز العقل الإنساني وربط الظواهر الكونية بالدلالات الإيمانية والمعرفية، ودعوة الإنسان إلى التأمل في نظام الكون بوصفه دليلا على القدرة الإلهية والحكمة الربانية.

قد أولى المفسرون اهتماما كبيرا بآيات الكون؛ لما تتضمنه من أبعاد معرفية تتصل بإثبات العقيدة وتفسير الظواهر الطبيعية وربط الإنسان بالخالق، كما شكلت هذه الآيات مجالا خصبا لظهور الاتجاه العقلي في التفسير، خاصة لدى المفسرين الذين اعتمدوا على البرهان العقلي في بيان الحكمة من النظام الكوني ودلالاته العقدية (السبحاني، ٢٠٠٥، ص. ٢١٤).

وتتجلى أهمية آيات الكون في كونها تجمع بين البعد الإيماني والبعد المعرفي؛ فهي من جهة تدعو إلى الإيمان والتوحيد، ومن جهة أخرى تحفّز العقل الإنساني على البحث والتأمل واكتشاف سنن الكون الأمر الذي يعكس طبيعة التكامل بين الوحي والعقل في الخطاب القرآني.

ثالثا: العلاقة بين العقل والنص في الفكر التفسيري الإسلامي

تُعدّ قضية العلاقة بين العقل والنص من القضايا المركزية في الفكر الإسلامي، وقد شغلت مساحة واسعة في مباحث التفسير وعلم الكلام وأصول الفقه، وتتمثل هذه العلاقة في كيفية توظيف العقل في فهم النصوص الشرعية وحدود التأويل العقلي وإمكانية التوفيق بين دلالة الوحي ومتطلبات النظر المنطقي (الزرقاني، ١٩٩٥، ص. ٣٩).

وقد ظهرت في التراث الإسلامي اتجاهات متعددة في التعامل مع هذه القضية، إذ اتجه

فريق إلى تغليب ظاهر النص والحد من دور العقل في تفسير القضايا الغيبية والعقدية، بينما منح فريق آخر العقل مساحة أوسع في فهم النص وتأويله خاصة في القضايا التي تتعلق بالصفات الإلهية والظواهر الكونية، وأسهم هذا التباين في نشوء مدارس فكرية وكلامية متعددة لكل منها منهجه الخاص في التعامل مع النص القرآني (الشاطبي، ١٩٩٧، ص. ٥٦).

على الرغم من هذا الاختلاف الا أن كثيرا من علماء المسلمين أكدوا أن العلاقة بين العقل والنص ليست علاقة تعارض، بل علاقة تكامل؛ إذ إن العقل يُعدّ وسيلة لفهم الوحي وإدراك مقاصده، في حين يمثل الوحي المصدر الأعلى للمعرفة والهداية، ومن هنا ظهر الاتجاه الذي سعى إلى تحقيق التوازن بين البرهان العقلي ودلالة النص بعيدا عن الجمود الحرفي أو الإفراط التأويلي (فضل، ١٩٩٦، ص. ٦٦).

وقد كان لهذا الاتجاه أثر واضح في تطور المناهج التفسيرية، ولا سيما لدى المفسرين الذين تأثروا بعلم الكلام والفلسفة الإسلامية ومن بينهم محمد بن الحسن الطوسي، الذي سعى في تفسيره إلى توظيف العقل في تحليل آيات الكون وإبراز أبعادها العقدية والمعرفية مع المحافظة على مركزية النص القرآني بوصفه أصلا في بناء المعنى التفسيري.

٣.المبحث الثاني: منهج محمد بن الحسن الطوسي في تفسير آيات الكون

أولا: التعريف بالشيخ الطوسي وتفسير «التبيان»

يُعدّ الشيخ محمد بن الحسن الطوسي أَبُوْ جَعْفَر مُحَمَّدُ بنْ الحَسَن الطُوْسِيّ (٣٨٥هـ - ٤٦٠هـ/ ٩٩٥م - ١٠٦٧م) المَعْرُوْفُ بِشَيْخ الطَائِفَةِ والشَيْخُ الطُوْسِي، مِنْ مُتَكَلِمِيّ ومُحَدِّثِيّ ومُفَسِّرِيّ وفُقَهَاءِ الشِيْعَةِ فِيْ القَرْن الخَامِسِ الهِجْرِيّ من أبرز علماء الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري، سُمْيَّ بالطُوْسِي ؛ نِسْبَة إلى طُوْس نَاحَيْةٌ فِيْ خَرَاسَان إذ وُلِدَ بخَرَاسَان سَنَة ٣٨٥هـ فِيْ شَهَرِ شَعْبَانَ ،وَ دَرَسَ عَلَى أيْدِي أكَابر العُلَمَاءِ، الذِيْنَ مِنْهُم الشَرِيْفُ المُرْتَضَى وَقَدْ لازَمَه، فاعْتَنَى المُرْتَضَى بِتَوْجِيهِهِ وتَنْمِيَةِ مَواهِبِهِ العِلْمِيّةِ طَوَالَ ثَمَان وعِشْرِينَ سَنَة، حَتّى صَارَتِ الأَنْظَارُ مُتوْجّهَة إلى الطُوْسِي أنْ يَخْلِفَ أُسْتَاذَهُ لِزَعَامَةِ الأُمَّةِ بَعْدَهُ، وقد عُرف بمكانته العلمية الرفيعة في مجالات التفسير والفقه والكلام والأصول، ووُلِد في مدينة طوس بخراسان ثم انتقل إلى بغداد التي كانت آنذاك مركزا علميا وفكريا مهما، فتتلمذ على كبار علماء عصره ولا سيما الشريف المرتضى، الحسين بن عبيد الله الغضائري ، الشيخ المفيد ، أحمد النجاشي ، الحسين بن ابي محمد هارون بن موسى التلعكبري ، علي بن أحمد بن محمد بن أبي

جيد، وقد أسهم هذا الأمر في تكوين شخصيته العلمية والكلامية، وقد تأثر الطوسي بالبيئة العلمية التي كانت سائدة في بغداد في القرن الخامس الهجري، إذ كانت المدينة مركزا للحوار الفكري والكلامي بين مختلف الاتجاهات الإسلامية، الأمر الذي انعكس على منهجه التفسيري القائم على المناقشة والاستدلال وإيراد الآراء المتعددة قبل الترجيح بينها، وهو ما أظهر نزعته العلمية في التعامل مع النصوص القرآنية والقضايا العقدية (مدرسي، ١٩٩٣، ص.١٢١-١٢٣؛ الطهراني، ١٩٨٣، ص.٢٣٤).

وقد ترك الطوسي تراثا علميا واسعا شمل علوم التفسير والحديث والفقه والكلام، ويأتي في مقدمة مؤلفاته كتاب «التبيان في تفسير القرآن» الذي يُعدّ من أوائل التفاسير الجامعة عند الإمامية، ومن أكثرها نضجا من الناحية المنهجية والمعرفية، وتميز هذا التفسير بجمعه بين التفسير اللغوي والكلامي والفقهي مع عناية واضحة بتوظيف العقل والبرهان في فهم النص القرآني، كما اتسم تفسير «التبيان» بالشمولية المنهجية؛ إذ لم يقتصر على بيان المعاني اللغوية للآيات بل توسع في مناقشة الأبعاد العقدية والفقهية المرتبطة بالنص القرآني، مع اهتمام واضح بتوظيف الأدلة العقلية في معالجة القضايا الفكرية التي كانت مثار جدل بين علماء الكلام في عصره، وهذا التفسير حاز قصب السبق من بين سائر التفاسير التي كانت دارجة لحد ذاك الوقت، والتي كانت أكثرها مختصرات، تعالج جانبا من التفسير دون جميع جوانبه، مما اوجب ان يكون هذا التفسير جامعا لكل ما ذكره المفسرون من قبل، وحاويا لجميع ما بحثه السابقون عليه (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١٥).

ويُعدّ التبيان في تفسير القرآن ، من التفاسير الشيعية وهو أكمل تفسير شيعي؛ بمعنى أنّه مفسّر وجامع لكل آيات القرآن؛ والمؤلف وظّف جميع طرق التفسير لشرح الآيات القرآنية؛ كما أنه يعتبر من أقدم مصادر التفسير، وقد انتهج العديد من مفسّري الشيعة للقرآن نهج الطوسي في التفسير، لم يكتف المؤلف بالمأثور عن أهل البيت، بل ركّز على عنصر العقل وأخذ بنظر الاعتبار العلوم المختلفة في تفسيره مدققا آراء المفسرين الماضين والمعاصرين له، ومن هذا المنطلق اعتبر البعض أن هذا التفسير يشمل علوما مختلفة كالصرف والنحو والاشتقاق والمعاني والبيان والحديث والفقه والكلام والتأريخ، ويعد نقلة نوعية في مسار التفسير الإسلامي؛ إذ لم يقتصر الطوسي فيه على الروايات التفسيرية بل سعى إلى تحليل الآيات وفق رؤية تجمع بين الدلالة اللغوية والاستدلال العقلي مع الاهتمام بمناقشة الآراء الكلامية والفلسفية المرتبطة بالآيات

القرآنية خاصة في القضايا العقدية والكونية، وقد أظهر الطوسي قدرة واضحة على توظيف الحجاج العقلي والمنطق الكلامي في تفسير النصوص مع المحافظة على مركزية القرآن الكريم بوصفه أصلا للمعرفة الدينية، ويظهر من خلال منهجه التفسيري أن الطوسي كان يسعى إلى تقديم تفسير متوازن يجمع بين الرواية والدراية، ولذلك حرص على الاستفادة من المعارف اللغوية والكلامية والفقهية في تحليل النص القرآني دون أن يؤدي ذلك إلى إبعاد النص عن دلالته الأصلية أو إخضاعه لتأويلات فلسفية مجردة، ومن الجدير بالذكر ان هذا التفسير هو تفسير حافل جامع، شيعي معتدل، أقرب لأهل السنة، وشامل لمختلف ابعاد الكلام حول القرآن، لغة وادبا، قراة ونحوا، تفسيرا وتاويلا، فقها وكلاما بحيث لم يترك جانبا من جوانب هذا الكلام الإلهي الخالد، الا وبحث عنه بحثا وافيا، ومن من ارجاعات الشيخ في تفسيره إلى كتبه الفقهية والأصولية والكلامية، انه كتب التفسير متاخرا عن سائر كتبه في سائر العلوم، ومن ثم فان هذا الكتاب يحظى بقوة ومتانة وقدرة علمية فائقة، شان أي كتاب تم تاليفه في سنين من حياة المؤلف (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٤٥-٤٧).

كما تميز تفسير «التبيان» بالانفتاح على مختلف الاتجاهات العلمية والفكرية في عصره؛ إذ ناقش آراء المعتزلة والأشاعرة وغيرهم من الفرق الإسلامية محاولا تقديم رؤية تفسيرية تقوم على التوازن بين العقل والنقل، وهو ما جعل تفسيره يحظى بمكانة بارزة في الدراسات التفسيرية اللاحقة.

ثانيا: الأسس المعرفية والكلامية في منهجه التفسيري

استند منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم إلى مجموعة من الأسس المعرفية والكلامية التي أسهمت في تشكيل رؤيته التفسيرية، وكان من أبرزها اعتماد العقل بوصفه أداة لفهم النص واستنباط دلالاته خاصة في القضايا التي تتصل بالعقيدة وآيات الكون، وقد تأثر الطوسي ببيئته العلمية التي شهدت ازدهار علم الكلام والفلسفة الإسلامية، الأمر الذي انعكس بصورة واضحة على منهجه في تفسير القرآن الكريم، ولا سيما في الآيات التي تدعو إلى التفكر والتدبر والنظر في خلق الله تعالى، كقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الروم: ٢٤]، وقوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [يونس: ١٠١]، الأمر الذي يعكس حضور البعد العقلي والمعرفي في الخطاب القرآني وتأثيره في تشكيل المنهج التفسيري عند الطوسي (مدرسي، ١٩٩٣، ص. ٨٧).

ومن أبرز الأسس التي اعتمدها الطوسي في تفسيره الجمع بين دلالة النص والبرهان العقلي؛ إذ لم يكن يرى تعارضا بين الوحي والعقل، بل اعتبر العقل وسيلة لفهم مقاصد النص وإدراك أبعاده المعرفية، ولذلك نجده يوظف الأدلة العقلية في مناقشة القضايا العقدية مثل إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وبيان الحكمة من خلق الكون، مستندا إلى مبدأ السببية والنظام الكوني بوصفهما دليلين على وجود الخالق وحكمته، وهو ما يظهر في الآيات التي تدعو إلى النظر والتفكر في نظام الكون، كقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) [ص: ٢٧]، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران: ١٩٠]، الأمر الذي يعكس اعتماد الخطاب القرآني على مخاطبة العقل الإنساني وربط الظواهر الكونية بالدلالات العقدية والمعرفية (الطوسي، ١٩٦٣، ص. ٥٢).

كما تأثر الطوسي بعلم الكلام الإمامي الذي يقوم على استخدام البرهان العقلي في الدفاع عن العقائد الإسلامية، ولذلك ظهر البعد الكلامي بوضوح في تفسيره خاصة عند مناقشة الآيات المتعلقة بالصفات الإلهية والعدل والنبوة والمعاد، كقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) [الأنبياء: ١٠٤]، وقد اعتمد في ذلك على الحجاج العقلي والرد على المخالفين، مع الحرص على عدم إخضاع النص القرآني لتأويلات فلسفية متطرفة تخرجه عن دلالته الأصلية (ابن النديم، ١٩٩٧، ص. ٤٠١).

ومن الأسس المهمة في منهجه أيضا اعتماده على اللغة العربية وأدواتها البلاغية والنحوية في فهم النص، إذ كان يرى أن التفسير الصحيح لا يتحقق إلا من خلال الجمع بين الدلالة اللغوية والاستدلال العقلي، وهو ما منح تفسيره طابعا منهجيا متوازنا يجمع بين العقل والنقل داخل البناء التفسيري.

ثالثا: آليات الاستدلال البرهاني في تفسير الظواهر الكونية

اعتمد الطوسي في تفسير آيات الكون على مجموعة من الآليات البرهانية التي هدفت إلى الكشف عن الدلالات العقدية والمعرفية للظواهر الكونية، وربط النظام الكوني بفكرة القدرة الإلهية والحكمة الربانية، وقد تمثلت هذه الآليات في توظيف المنطق العقلي وربط الأسباب بالمسببات والاستدلال بالنظام الكوني على وجود الخالق ووحدانيته، كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي

اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) [يونس: ٦]، وقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الطلاق: ١٢]، وقوله تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) [النمل: ٨٨]، إذ تعكس هذه الآيات حضور البعد البرهاني في الخطاب القرآني وربط الظواهر الكونية بالدلالات الإيمانية والمعرفية (الطوسي، ١٩٦٣، ص. ١٤٥).

ومن أبرز مظاهر هذا الاستدلال تفسيره للآيات المتعلقة بخلق السماوات والأرض؛ إذ يرى أن انتظام الكون ودقة بنائه يمثلان دليلا عقليا على وجود خالق حكيم، وأن هذا النظام لا يمكن أن يكون ناتجا عن المصادفة أو العبث، ولذلك كان الطوسي يوظف مبدأ النظام الكوني بوصفه برهانا على الوحدانية والإرادة الإلهية مستندا في ذلك إلى منهج عقلي قريب من مناهج المتكلمين المسلمين، وقد انسجم هذا المنهج مع ما ورد في القرآن الكريم من دعوة إلى التأمل في نظام الكون ودقته، كما في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) [ق: ٦]، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران: ١٩٠]، وكذلك قوله تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) [الملك: ٣]، إذ تعكس هذه الآيات البعد العقلي والتأملي الذي اعتمده الطوسي في تفسير الظواهر الكونية وربطها بإثبات القدرة الإلهية والحكمة الربانية (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣٢٠).

كما اعتمد الطوسي على الاستدلال بالمشاهدة الحسية والتجربة الإنسانية في تفسير الظواهر الطبيعية مثل تعاقب الليل والنهار وحركة الشمس والقمر حيث اعتبر هذه الظواهر شواهد عقلية على دقة النظام الكوني وانتظامه، ولم يكن هدفه من ذلك مجرد تفسير الظاهرة الطبيعية، بل الكشف عن أبعادها الإيمانية والمعرفية وربطها بمقاصد القرآن الكريم في الدعوة إلى التفكر والتأمل، كما في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [الفرقان: ٦٢]، وقوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) [الرعد: ٢]، إذ تعكس هذه الآيات البعد التأملي والعقلي في النظر إلى الظواهر الكونية وربطها بإثبات القدرة الإلهية والحكمة الربانية (ابن عاشور، ١٩٨٤، ص. ٢١١- ٢٢٠).

ويظهر البعد البرهاني في تفسير الطوسي أيضا من خلال مناقشته للآراء الكلامية والفلسفية المتعلقة بالكون، إذ كان يعتمد أسلوب المقارنة والنقد والترجيح بين الآراء

المختلفة مع تقديم ما يراه أكثر انسجاما مع ظاهر النص والعقل معا، وقد انسجم هذا المنهج مع الدعوة القرآنية إلى إعمال العقل واتباع البرهان، كما في قوله تعالى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ١١١]، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الرعد: ٣]، وقد أسهم هذا المنهج في ترسيخ الاتجاه التفسيري الذي يقوم على التكامل بين الوحي والعقل بعيدا عن الجمود الحرفي أو الإفراط التأويلي.

٤.المبحث الثالث: التكامل بين النص والعقل في تفسير محمد بن الحسن الطوسي لآيات الكون

أولا: توظيف العقل في بناء الدلالة التفسيرية

يُعدّ توظيف العقل في بناء الدلالة التفسيرية من أبرز السمات المنهجية التي ميّزت تفسير محمد بن الحسن الطوسي، إذ لم يقتصر في تفسيره على النقل والرواية بل سعى إلى توظيف البرهان العقلي والحجاج الكلامي في الكشف عن المعاني الكامنة في النص القرآني ولا سيما في الآيات المتعلقة بالكون والوجود، وقد انطلق الطوسي من رؤية معرفية ترى أن العقل يمثل أداة أساسية لفهم الخطاب القرآني وإدراك مقاصده، وأن النص القرآني ذاته يدعو إلى النظر والتفكر في آيات الله الكونية بوصفها دلائل على القدرة الإلهية ووحدانيته، كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران: ١٩٠]، وقوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [يونس: ١٠١]، وقد انعكس هذا التوجه في اعتماده على الآيات التي تحث الإنسان على التأمل في نظام الكون بوصفه طريقا إلى ترسيخ اليقين العقائدي، إذ رأى أن التأمل العقلي في الموجودات الكونية يقود إلى إدراك الحكمة الإلهية الكامنة وراء الخلق، وأن الخطاب القرآني لا ينفصل عن مخاطبة العقل الإنساني وإثارة ملكة التفكير والاستدلال لديه (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١٩؛ الطوسي، ١٩٦٣، ص. ٤٨).

وقد ظهر هذا التوظيف بصورة واضحة في تفسيره للظواهر الكونية؛ إذ اعتمد على الربط بين المشاهدة الحسية والاستدلال المنطقي في تفسير خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وحركة الأجرام السماوية، وكان الطوسي يرى أن انتظام الكون ودقة نظامه يمثلان برهانا عقليا على وجود الخالق وحكمته، كما في قوله تعالى: (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ) [الملك: ٣]، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) [يونس: ٦]، ولذلك وظّف مبدأ السببية والنظام الكوني في

بناء المعنى التفسيري وربطه بالبعد العقدي للآيات، كما أن الطوسي لم يتعامل مع الظواهر الكونية بوصفها مشاهد طبيعية مجردة، بل نظر إليها باعتبارها شواهد دالة على وحدة النظام الإلهي في الكون، الأمر الذي جعله يربط بين البناء الكوني والدلالة العقدية ربطا وثيقا مستفيدا من المناهج الكلامية التي كانت سائدة في البيئة الفكرية الإسلامية آنذاك (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٣١١؛ معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣٢١)، وفي هذا السياق أشار الطوسي إلى أن "في خلق السماوات والأرض دلالة واضحة على حكمة الخالق ووحدانيته"، وهو ما يعكس اعتماده على الاستدلال العقلي في تفسير الظواهر الكونية وربطها بالأبعاد العقدية والإيمانية (الطوسي، ١٩٦٣، ص. ١١٢).

كما اعتمد الطوسي على الحجاج العقلي في مناقشة القضايا الكلامية المرتبطة بآيات الكون مثل إثبات الوحدانية والقدرة الإلهية ونفي العبث عن الخلق، حيث كان يستخدم أسلوب البرهان والمناقشة العقلية في الرد على الآراء المخالفة مع المحافظة على دلالة النص القرآني وعدم إخضاعه لتأويلات فلسفية بعيدة عن سياقه اللغوي والديني، وقد انسجم هذا المنهج مع الدعوة القرآنية إلى إعمال البرهان والتفكر في خلق الله تعالى، كما في قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) [ص: ٢٧]، وأن الطوسي كان حريصا على تحقيق نوع من التوازن بين مقتضيات العقل ودلالات النص، فلم يُلغ الجانب النقلي في التفسير، بل سعى إلى توظيف العقل بوصفه أداة لفهم النص وإبراز أبعاده المعرفية وهو ما منح تفسيره طابعا منهجيا يجمع بين التفسير اللغوي والتحليل العقلي في آنٍ واحد (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣١٨؛ الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٤٩).

ويكشف هذا المنهج عن وعي معرفي عميق بطبيعة العلاقة بين العقل والوحي؛ إذ لم يكن العقل عند الطوسي بديلا عن النص وإنما وسيلة لفهمه وإبراز أبعاده الدلالية والمعرفية، الأمر الذي منح تفسيره طابعا تفسيريا متوازنا يجمع بين البرهان العقلي والدلالة النصية، كما يظهر اهتمام الطوسي بالجمع بين العقل والنقل من خلال تأكيده أن "القرآن لا يُفهم على وجهه الصحيح إلا بالنظر والتدبر"، وهو ما ينسجم مع الدعوة القرآنية إلى إعمال الفكر والتأمل في معاني الوحي، كما في قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: ٢٩]، وهو ما يكشف عن مركزية العقل في منهجه التفسيري مع

بقائه ملتزما بأصول الدلالة النصية (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٥١).

ثانيا: التوازن بين ظاهر النص ومتطلبات النظر العقلي

تميّز منهج الطوسي التفسيري بمحاولة تحقيق التوازن بين ظاهر النص القرآني ومتطلبات النظر العقلي، وهي من أبرز القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي وعلوم التفسير والكلام، فقد رفض الطوسي الاتجاهات التي جمدت على ظاهر النص دون النظر في أبعاده العقلية، كما لم ينحُ نحو التأويل الفلسفي المفرط الذي يؤدي إلى إخضاع النص للفرضيات العقلية المجردة (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٨٩).

وقد تجلى هذا التوازن في تفسيره لآيات الكون من خلال اعتماده على ظاهر النص بوصفه الأصل في بناء المعنى، مع الاستعانة بالعقل في توضيح الدلالات وبيان الحكم والمقاصد المرتبطة بالظواهر الكونية. ولذلك كان الطوسي يحرص على تفسير الآيات في إطارها اللغوي والشرعي، ثم يعمد إلى توظيف البرهان العقلي في تعزيز المعنى التفسيري وإثبات أبعاده العقدية والمعرفية (الطوسي، ١٩٦٣، ص. ١٥٣).

كما يظهر هذا المنهج في موقفه من القضايا الغيبية والكونية؛ إذ لم يكن يميل إلى التأويل البعيد أو التفسير الرمزي المفرط بل حاول التوفيق بين مقتضيات العقل وحدود النص، انطلاقا من أن الوحي والعقل مصدران متكاملان للحقيقة ولا يمكن أن يقع بينهما تعارض حقيقي، وهو ما ينسجم مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت: ٥٣]، وقد تأثر في ذلك بالمنهج الكلامي الذي سعى إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال الجمع بين الأدلة النقلية والعقلية (الشاطبي، ١٩٩٧، ص. ٥٨).

ومن هنا يمكن القول إن الطوسي أسّس لمنهج تفسيري يقوم على الاعتدال في توظيف العقل، بحيث يبقى النص القرآني هو المرجعية الأساسية، بينما يؤدي العقل دورا تفسيريا ومعرفيا في الكشف عن الحكم والدلالات، وهو ما أسهم في ترسيخ فكرة التكامل بين العقل والنص داخل البناء التفسيري الإسلامي.

ثالثا: أثر منهج الطوسي في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية

كان لمنهج الطوسي في تفسير آيات الكون أثر واضح في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية داخل التراث الإسلامي، إذ مثّل تفسيره نموذجا مبكرا للتكامل بين الوحي

والعقل في فهم النص القرآني، وقد أسهم هذا المنهج في تطوير الاتجاه العقلي المعتدل في التفسير من خلال الجمع بين التحليل اللغوي والحجاج الكلامي والاستدلال البرهاني (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣٢٥).

كان لمنهج الطوسي في تفسير آيات الكون أثر واضح في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية داخل التراث الإسلامي، إذ مثّل تفسيره نموذجا مبكرا للتكامل بين الوحي والعقل في فهم النص القرآني، وقد أسهم هذا المنهج في تطوير الاتجاه العقلي المعتدل في التفسير من خلال الجمع بين التحليل اللغوي والحجاج الكلامي والاستدلال البرهاني، وذلك انسجاما مع دعوة القرآن إلى إعمال العقل والتفكر في آيات الكون، كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ١٩٠)، وقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) (النساء: ٨٢)، وقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ) (فصلت: ٥٣)، وهي آيات تؤسس لمشروعية النظر العقلي في الكون والنص معا (معرفة، ٢٠٠٥، ص. ٣٢٥).

وقد تأثر عدد من المفسرين اللاحقين بمنهج الطوسي، خاصة في المدرسة الإمامية، حيث أصبح تفسير «التبيان» مرجعا مهما في الدراسات التفسيرية والكلامية. كما انعكس أثره في التفاسير التي اهتمت بالقضايا العقلية والكونية، والتي سعت إلى إبراز العلاقة بين النص القرآني والمعرفة العقلية والكونية، وهو اتجاه يستند إلى دعوة القرآن إلى التفكر في خلق السماوات والأرض كما في قوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس: ١٠١) (الذهبي، ٢٠٠٠، ص. ٥٣)، ومن جهة أخرى، أسهم منهج الطوسي في ترسيخ الحضور العلمي لعلم الكلام داخل الدراسات التفسيرية؛ إذ أظهر إمكانية توظيف البرهان العقلي في تفسير القرآن الكريم دون الإخلال بقدسية النص أو تجاوز حدوده الدلالية، وهو ما ينسجم مع دعوة القرآن إلى إعمال العقل مثل قوله تعالى: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (البقرة: ٤٤)، وقوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (البقرة: ٢٤٢)، وقد مهّد ذلك لظهور اتجاهات تفسيرية لاحقة اهتمت بإعادة قراءة النص القرآني في ضوء القضايا الفكرية والعقلية التي شهدها الفكر الإسلامي (الزرقاني، ١٩٩٥، ص. ٣٩)، كما تتجلى أهمية منهجه في الدراسات المعاصرة التي تسعى إلى إعادة بناء العلاقة بين الدين والعقل، وإبراز البعد المعرفي للخطاب القرآني في مواجهة القراءات الحرفية أو التأويلات المتطرفة، ولذلك يُعدّ منهج الطوسي من النماذج التفسيرية التي أسهمت في بناء رؤية معرفية متوازنة تقوم على التكامل بين النص والعقل داخل التراث الإسلامي.

٥.الخاتمة

تناولت هذه الدراسة منهج الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون عند محمد بن الحسن الطوسي من خلال الكشف عن الأسس المعرفية والكلامية التي اعتمدها في تفسيره، وبيان طبيعة العلاقة بين العقل والنص في بناء الدلالة التفسيرية للآيات الكونية، وقد سعت الدراسة إلى تحليل منهجه في توظيف البرهان العقلي والحجاج الكلامي في تفسير الظواهر الكونية، وبيان أثر ذلك في ترسيخ التكامل بين الوحي والعقل داخل الفكر التفسيري الإسلامي.

أولا: النتائج

١. أظهرت الدراسة أن الشيخ الطوسي اعتمد منهجا تفسيريا متوازنا جمع بين دلالة النص القرآني وأساليب الاستدلال البرهاني والكلامي، بعيدا عن الجمود الحرفي أو الإفراط التأويلي.
٢. كشفت الدراسة أن تفسير «التبيان» مثّل نموذجا مبكرا للتكامل المعرفي بين الوحي والعقل، من خلال توظيف العقل بوصفه أداة لفهم النص والكشف عن مقاصده العقدية والمعرفية.
٣. بيّنت الدراسة أن الطوسي اعتمد على مجموعة من الآليات العقلية في تفسير آيات الكون من أبرزها الاستدلال بالنظام الكوني والربط بين السبب والمسبب وتوظيف الحجاج الكلامي في إثبات الوحدانية والقدرة الإلهية.
٤. توصلت الدراسة إلى أن الطوسي لم يجعل العقل بديلا عن النص، وإنما اعتبره وسيلة لفهم الدلالة القرآنية وتعزيزها، الأمر الذي أسهم في تحقيق التوازن بين ظاهر النص ومتطلبات النظر العقلي.
٥. أثبتت الدراسة أن لمنهج الطوسي أثرا واضحا في تطور الدراسات التفسيرية والكلامية اللاحقة، ولا سيما في التفاسير التي اهتمت بالبعد العقلي والمعرفي في تفسير القرآن الكريم.
٦. كشفت الدراسة أن آيات الكون في تفسير الطوسي لم تُعرض بوصفها وصفا للظواهر الطبيعية فحسب بل بوصفها دلائل معرفية وعقدية تهدف إلى ترسيخ الإيمان وتنمية التفكير التأملي في النظام الكوني.

ثانيا: التوصيات

١. ضرورة الاهتمام بالدراسات التفسيرية التي تعالج العلاقة بين العقل والنص في التراث الإسلامي، لما لذلك من أهمية في فهم طبيعة الخطاب القرآني وأبعاده المعرفية.
٢. الدعوة إلى إعادة قراءة التفاسير التراثية، ولا سيما تفسير «التبيان»، قراءة علمية

معاصرة تكشف عن مناهجها الفكرية وأسسها الاستدلالية.

٣. الإفادة من المناهج العقلية المعتدلة في التفسير في مواجهة الاتجاهات المتشددة أو القراءات التي تقوم على الفصل بين العقل والوحي.

٤. تشجيع الدراسات المقارنة بين مناهج المفسرين في تفسير آيات الكون، من أجل الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف في توظيف البرهان العقلي داخل البناء التفسيري.

٥. الاهتمام بإبراز البعد المعرفي والعلمي لآيات الكون في الدراسات القرآنية المعاصرة، بما يسهم في تعزيز الحوار بين الدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية والطبيعية.

ثالثا: المقترحات البحثية المستقبلية

١. إجراء دراسة مقارنة بين منهج محمد بن الحسن الطوسي ومنهج فخر الدين الرازي في توظيف الاستدلال العقلي في تفسير آيات الكون.

٢. دراسة أثر علم الكلام الإمامي في تشكيل المناهج التفسيرية عند علماء القرن الخامس الهجري.

٣. بحث آليات الحجاج العقلي في تفسير «التبيان» وأثرها في بناء الدلالة العقدية.

٤. دراسة العلاقة بين التفسير العقلي والاتجاهات الفلسفية في التراث التفسيري الإسلامي.

٥. إعداد دراسة تطبيقية حول أثر آيات الكون في بناء التفكير التأملي والمعرفي في القرآن الكريم من منظور تفسيري معاصر.

المصادر

القرآن الكريم

الزرقاني، محمد عبد العظيم. (١٩٩٥). مناهل العرفان في علوم القرآن. دار الفكر.

ابن النديم، محمد بن إسحاق. (١٩٩٧). الفهرست. دار المعرفة.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.

السبحاني، جعفر. (٢٠٠٥). المناهج التفسيرية في علوم القرآن. مؤسسة الإمام الصادق.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (١٩٩٧). الموافقات (تحقيق مشهور حسن سلمان). دار ابن عفان.

الطوسي، محمد بن الحسن. (١٩٦٣). التبيان في تفسير القرآن (تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي). دار إحياء التراث العربي.

الطهراني، آغا بزرك. (١٩٨٣). الذريعة إلى تصانيف الشيعة (ج. ٩). دار الأضواء.

الذهبي، محمد حسين. (٢٠٠٠). التفسير والمفسرون (ط ٨). مكتبة وهبة.

فضل، صلاح. (١٩٩٦). بلاغة الخطاب وعلم النص. عالم المعرفة.

معرفة، محمد هادي. (٢٠٠٥). التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب. الجامعة الرضوية.

مدرسي، حسين. (١٩٩٣). مقدمة في تاريخ علم الكلام الإمامي. دار الثقافة.